وليست هي وحدها التي عانت الحسرة والالتياع[406]، أيّما امرئ غيرها بمكة كان حريّاً به أن يعاني نفس المعاناة، فينتصف للحقّ لو كان له ذمأ[407] ضمير، أو ذكر من مزاياهم ما سجّل لهم يوم حلف الفضول[408]. فذاك حلف مشهود، عصى شأنه على الإغفال إذ رفع رؤوسهم فوق الهام، وفاخروا به أهل جزيرتهم كافّةً، من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، ومن أبعد موقع في الجنوب إلى أبعد موقع في الشمال. وأنّى لقريش ـ خاصّةً وعامةً ـ أن تغفله أو تنساه؟ فأولئك الذين بلغوا الآن من شبابها مبلغ الرجولة حضروه وكانوا شهوده، وأولئك الذين تأخّرت بهم السنّ ولم يتخطّوا عتبة الشباب بعد، لا يبرحون يلهجون به لهج تمجيد، ومن ورائهم العرب كافّة تنظر إليهم من خلاله بإكبار. يروي الرواة: أنّ رجلاً من زبيد مطله قرشي ذو مقام وشأن بثمن بضاعة باعها له، فاعتلى جبل قبيس، وصاح يستغيث: يا للرجالِ لمظْلُوم بضَاعَته *** ببَطْن مكّةَ نائِي الحِمَى والنَفَر إنّ الحرامَ لمَنْ تَمّتْ كرامتُهُ *** ولا حَرامَ لثوبِ الفاجرِ الغَدِر[409] وسمع النداء أشراف قريش وهم في مجالسهم عند الحرم، فأخذتهم المروءة، وراحوا يتدبّرون ما عساهم يفعلون، عندئذ دعاهم الزبير بن عبدالمطلب إلى